

خطاب صاحب الجلالة
بمناسبة الذكرى الثالثة والأربعين لمولد جلالته

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله

شعبي العزيز

ألفنا أن نلتقي في هذا اليوم من كل سنة لنحتفل جميعاً بعيد الشباب الذي يصادف ذكرى ميلادي، وقد أبيت شعبي العزيز وأبى والدي المرحوم محمد الخامس الا أن يجعل الاحتفال بعيد ميلادي والاحتفال بعيد الشباب عيدين مقرونين حتى يعطي لشباب هذه الأمة ــ الذي ليس شباباً موقوفاً على جيل ولكن يجب أن يبقى شباباً مستمراً مدى العصور والأعوام والسنين والشهور ــ ليعطي لهذا الشباب المغربي فرصة يحاسب فيها نفسه ويتذاكر مع نفسه وينظر إلى مشاكله وحتى يمكنه كذلك أن يحلل طموحه وعناصر مستقبله.

شعبي العزيز

مراراً تجاذبنا أطراف الحديث، ومراراً خاطبتك في ميادين شتى وفي مواضيع مختلفة، وإذا لاحظت كنت دائماً أؤكد أكثر ما أؤكد على ناحية التنمية والتكوين، حتى يمكن لهذا المغرب ولهذا الشعب ولأبنائنا أن يعيشوا في مأمن من الخوف والجوع والجهل والتخلف، ولكن اليوم أبيت إلا أن أتطرق إلى موضوع آخر يمتُّ إلى التنمية الاقتصادية بصلة وثيقة وقريبة، ألا وهو التنمية الخلقية والأخلاقية، وموضوع التربية والتكوين والديانة والمواطنة، وحتى يمكنني أن أنفذ إلى مفاهيم جميع الناس وإلى قلوب جميع الآباء والأمهات وإلى أذهان جميع الشبان سأرغِمُ نفسي على التحدث إليك بالعربية الدارجة وإن كانت العربية الدارجة الحقة أصعب في نظري من العربية الفصحى.

لا يخفى عليك شعبي العزيز أن كل أمة وكل دولة زيادة على إطارها الدستوري ونظامها الاجتماعي والسياسي الذي تعيش فيه تكون قد اختارت بكيفية نهائية الأساس الخلقي والديني الذي ستعيش بمقتضاه، وتضع لذلك حدوداً وقواعد من الضروري أن يراعيها كل مواطن سواءاً كان أباً أو أماً، حتى يمكن للأبناء والأجيال المقبلة أن تعيش بعمود فقري، ذلك أن الأخلاق والمذاهب والديانة هي بمثابة العمود الفقري للجسد وما بقي ليس إلا أعضاء مثل الذراعين أو الرجلين أو الكتفين، فلا يمكن للانسان أن يفكر في مجتمع لا قانون خلقي إنساني له، وإذا أردنا حقيقة أن نتمعن في البيئة المغربية نجدها لا إحراج فيها ولا وجود لذلك النوع من الارغام الذي يجعل الديانة مكروهة أو مذاهب منبوذة، بالعكس إذا كانت بعض الديانات الأخرى وثنية أو سماوية قد تحرفت واستعملت لاستعباد الناس فالديانة الاسلامية جاءت في الحقيقة بالتحرر ولتحرير الناس، فهي مطابقة تماماً لما في القرن العشرين، ومطابقة تماماً لفلسفة النقد الذاتي والنقد المطلق، ولا تستعبد الناس، وإنما جاءت لتكرم بني آدم، وجاءت قبل كل شيء لتحافظ على حقوق الجماعات قبل أن تحافظ على حقوق الأفراد، ذلك أن في جميع قوانينها للتعامل والمعاملات دائما تعطي الأسبقية للمحافظة على المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة، ودائماً تعطي الأسبقية أيضاً لدرء المفسدة على جلب المصلحة، فإذا كنا نرى أن بعض الأجيال في بلاد نامية أو في طريق النمو تنتقد كل شيء وساخطة على كل شيء يمكن لنا أن نلتمس لها الأعذار، لأنه ربما في دياناتها أو في مذاهبها ما من شأنه أن يضيق رقعة الحرية الخاصة ويكبت المطامح ويطلب إلى الناس احترام سلم اجتماعي، أما الديانة الاسلامية فلم تأت بهذا، وإنما الديانة الاسلامية بالعكس نحن الذين فرضنا على

المكلفين بلوغ إحدى وعشرين عاماً، أما الديانة الاسلامية فهي كرمت بني آدم وجعلت المكلف من وصل سن البلوغ، وأنت تعلم شعبي العزيز أن سن البلوغ عند الرجال يكون أحياناً لدى الوصول إلى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، فإذاً الديانة الاسلامية جعلت منك أيها المواطن المسلم مسؤولا قبل السن المعترف به في جميع الدنيا، وتعطيك حق خوض معركة المسؤولية العامة في أي وقت كان، والمهم أن تكون مكلفاً، فمهما كلفت شرعاً يمكنك أن تصلي بالناس كما يمكنك إذا كنت عالماً أو مثقفاً أن تكون قاضياً بين الناس، وأن تنحر وتحلل الأضحية بيديك مما يعتبر مسؤوليات عامة، وأكثر من هذا فإن الديانة الاسلامية تجعلك من أول وهلة مكلفاً قادراً على أن تكون عضواً كاملا متكاملا مع الأعضاء الأخرى في المجتمع الاسلامي، فلماذا يا ترى نرى أن شبابنا يهرب من كل ما هو ديني ؟ ويتنكر لماضيه ولأسرته ولمجتمعه ؟ حاولت تحليل الموضوع، فوجدت أن المسؤولية ملقاة على ثلاثة ميادين.

الميدان الأول : البيت والأسرة.

الميدان الثاني : المدرسة والأستاذ وبرامج التعليم.

الميدان الثالث : الشارع والملاهي الغير المحمودة.

أما في البيوتات فنجد نوعين منها : إما بيت مثر وإما بيت فقير، ونلاحظ أن أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء يكبرون متنكرين للبيئة التي يعيشون فيها.

أبناء الأثرياء يأخذون على آبائهم وأمهاتهم في غالب الأحيان أنهم لا يؤدون فريضة الصلاة، والقليل منهم يرون أقاربهم يصومون ويحتفلون بأعيادهم الدينية وهم يحتفلون بعيد ميلاد المسيح أي برأس السنة الميلادية في حين أنهم لا يحتفلون بعيد المولد النبوي ولا بعيد الأضحى، ويأخذ هؤلاء الأبناء على أقاربهم أنهم لم يبيتوا ليلة واحدة يتضورون جوعاً ولا لبسوا ثياباً رثة بالية ولا ذاقوا قسوة البرد، وحينما تلتقي هذه التربية، تربية الدلال (الفشوش) مع عدم تدين الآباء يكبر الأولاد ناقمين على هذه البيئة التي جعلتهم في مأمن من الجوع والبرد، ويأخذون عليها أنها جعلتهم في هذا المأمن.

والطبقة الثانية في البيت نجد بيوتات متواضعة جداً : الأم تصلي وتصوم والأب كذلك، ولكن الحالة التي يعيشون فيها والمسكن والبيئة والدار الضيقة التي تكون غالباً في ملك غيرهم تجعل من ابنهم رغم اطمئنان نفسه من الناحية الروحية يتطلع إلى يوم التخلص من ذلك العش والمجتمع وتلك البيئة، حيث تربى، ويريد أن يغير ويقلب رأساً على عقب حياته التي تربى فيها رغم أنها كانت متدينة ناقمة على الفقر والجوع وعلى عدم السكن في بيت يلازمه ويتمشى مع مستواه ويصبح ثائراً على مجتمعه وعلى دينه، وحتى إذا حاولنا أن نعيده إلى طريق الصواب نجد أن البرامج الابتدائية والثانوية وحتى العليا تهمل ناحية الأخلاق هذه وكذا الناحية الدينية،

فمثلا نستمع إلى محفوظات تقرأ ما هي إلا محفوظات لائكية، ولا يوجد شاب مغربي الآن يمكن أن يحفظ في ذاكرته ولو خمسة أبيات شعرية من البردة بينما بإمكانه أن يحفظ خمسة أو عشرة أبيات للسموأل أو من المعلقات في حين خير ما يجب الابتداء به أن يحفظ الانسان بعض ما جاء في مدح النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أبو هذه الأسرة الاسلامية، أما إذا وصلنا إلى مرحلة التعليم الثانوي والعالي حيث من المفروض أن نعرف بالمفكرين فإننا لا نعرف بهم ونجد الشاب يدرس فلسفة كانط ولا يبنز وسبنسر وهيوم وآخرين ويترك جميع فلاسفتنا الحقيقيين.

أين ابن رشد والغزالي وأبو حيان التوحيدي ؟ هؤلاء الكتاب والمفكرون نجد أنهم غير معروفين، وجميع الأفكار كما نعتقد تأتينا عن طريق الغرب، فالأفكار كلها والتفكير لا يمكن التعبير عنه إلا بلغة أجنبية، كأن الفلسفة والمذاهب ما هي إلا وليدة للغة أجنبية، وفي الحقيقة نحن نحفر قبورنا وقبور اللغة العربية والمدنية الاسلامية بأيدينا، والحالة هذه أن المغرب كان ولايزال وسوف يظل إن شاء الله الساهر على التراث الاسلامي والحضارة الاسلامية كما كان طيلة القرون والعصور.

وحتى لو فقدنا هذين الميدانين نرى الميدان الثالث وهو الشارع ماذا نجد فيه ؟ نجد نوعاً من الاستهتار واللامبالاة والمس بالكرامة العامة، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من ابتلى منكم بمثل هذه القاذورات فليستتر، ولم يقل صلى الله عليه وسلم فليمسك، لم يقل فليعاقب، بل قال فليستتر، علماً منه صلى الله عليه وسلم بأن البشر معرض للخطأ والغلط.

وكما تعلمون فإننا كنا في وقت ما نخرج إلى الشارع، وكنا طلبة آنذاك، ونشاهد إخواننا المسلمين في المقاهي وأمامهم كؤوس من القهوة، وعصير الفواكه، أما اليوم فإن الخمور تشرب علناً، وهكذا نرى أننا نحن لم نرب أبناءنا على احترام قوانين الأخلاق الاسلامية، بل هناك من يرى والده في الشارع يتعاطى المحرمات.

فحقيقة كيف يمكننا نحن الآباء والمربين أن نقف أمام الله سبحانه وتعالى في الآجل وأمام ضمائرنا في العاجل ونقول إننا أدينا واجبنا، والحالة أننا لا نعطي للشباب المغربي ولأبنائنا أية ضمانة ليتربوا تربية إسلامية حقيقية.

ولا يهمنا وراء هذا كله ناحية النسك والعبادة، ولكن قبل كل شيء ناحية المعاملة، وطهارة الضمير، واستقامة الروح، فلا يمكن أن يعقل أن نترك شبابنا تتلاطم به الأمواج من الأفكار الهدامة والأفكار اللادينية، أفكار كلها تخريب وشغب، كيف يعقل أن نترك أبناءنا يرون شخصاً يقوم باختطاف طائرة مقابل 400 أو 500 ألف دولار ويشاهدون أفلاماً مهدمة للأخلاق ومخربة للبيوت ثم نبقى مكتوفي الأيدي سواء في البيت أو الشارع لمواجهة ذلك ؟

كيف يمكن أن نربي أبناءنا على الايمان بالفكرة والعقيدة إذا لم تتوفر فينا نحن الآباء والأمهات والمربين والأساتذة عزيمة قوية على بعث إسلام جديد، لا أقول ذلك الاسلام المتزمت، ذلك الاسلام الذي لا يعد الانسان إلا بالنار أو الجنة، إنه اسلام المعتزلة الذي يدعى أن فاعل الخير مصيره الجنة وفاعل الشر مصيره جهنم.

يجب أن نعمل بالاسلام الحقيقي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والقائل : لن يدخل الجنة أحدكم بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته.

وإذا كنا نعلم أن رحمة الله سبقت غضبه وأنه سبحانه وتعالى يلهم الخلق حتى يرجعوا إلى الطريق السوي وإذا كنا نعلم أن الاسلام دين الجماعة وليس دين الفرد، وأن الاسلام قبل كل شيء مبني على التعامل النقي الطاهر في سبيل فلسفة وغزو ومعركة، فلي اليقين أننا سنجعل من سنتنا المقبلة سنة بعث إسلامي.

وأنا أشعر أن كلامي هذا سيجد الصدى الحسن في قلب وذهن كل مغربي، لأنني أشعر وحاستي السادسة تشعر بأن جميع الناس في حاجة إلى بعث إسلامي وتجديد إسلامي وحركة إسلامية.



فالاسلام جاء لتوسيع حقوق الناس لا لتضييقها، وكل شيء مضر بحقوق الآخر هو مضر بالمجتمع، وكما قلت لكم فالاسلام لابد أن يفهم على حقيقته، فالاسلام يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه شريطة أن لا تضر بأخيك، هو أن الانسان لا يتبرج تبرج الجاهلية ليعمل نفس الأعمال التي يقوم بها أمام الناس وتحدياً للناس، أما من ابتلي منا بقاذورات فليستتر، ولم يقل صلى الله عليه وسلم فليمسك، وإذا أردنا في الحقيقة أن نجعل من الناشئة الطالعة ناشئة قادرة على تسيير معاملنا واستثمار سدودنا سنة 2000 لابد أن نعيد النظر ونفكر تفكيراً مطابقاً لسنة وسائل التربية في بيوتنا، وأعتقد شخصياً انه في استطاعة الانسان أن يربي إبنه تربية حسنة، ويعوده على تقبيل يده في الصباح والمساء اعترافاً لوالده بما له عليه من فضل في تربيته وتعليمه وإعالته، وهل من الضروري أن يتحدث الأب مع ابنه وابنته بلغة أجنبية عوض اللغة العربية ؟ لأنه توجد هناك عدة أسر مغربية أصيلة لا يتحدث أبناؤها باللغة العربية، هل من الضروري أن الأولاد والبنات لا يرتدون يوم الجمعة الزي التقليدي ولا يذهبون مع آبائهم إلى المساجد لأداء الصلاة وأن تشاهد البنت أمها في البيت تؤدي الصلاة بجانبها ؟ اللهم إلا إذا قررنا أن نعيش كأولئك المنافقين تعبيرنا أوربي تفكيرنا ليس مغربياً ولا إسلامياً، لباسنا ناقص وأخيراً يوم نتزوج ونلد، نلد خليطاً لا يمكن أن يعيش في مجتمع منظم، لا يمكن أن يعيش إلا في مجتمع فوضوي.

وإذا سرنا على هذا المنوال فإننا في الحقيقة نخلق هذا المجتمع الفوضوي لأننا نخلق أناساً سيكونون هذا المجتمع الفوضوي.

علينا أن نراجع تربيتنا في بيوتنا، علينا أن نراجع البرامج والمناهج التعليمية في المدارس، علينا أن نفتح ملاعب للشبان ودوراً للثقافة وخزانات للكتب، ونعرض عليهم الأفلام ونساعدهم على ملء أوقات فراغهم لضمان نجاح تربيتهم، وإذا بقي الطرف الثالث وهو الفراغ علينا أن نملأه بكيفية ما حتى إذا لم ننجح في كل شيء فإننا سننجح في تربية صالحة للناشئة، وهذه مسؤولية تقع على عاتقنا، فلهذا يجب أن نربي ونطعم، فإذا قمنا بذلك نكون قد خلقنا ناشئة سليمة ومكرمة من الناحية المادية والروحية، وإذ ذاك فإن تلك الناشئة ستقصد بنفسها المسجد، لأن التربية الاسلامية هي التي ستجلبها لذلك.

فلنجعل إذن شعبي العزيز من السنة المقبلة سنة تهذيب وتربية وبعث إسلامي بالمعنى الصحيح وبالفلسفة الاسلامية الصحيحة، ليست تلك الفلسفة المتزمتة بل الفلسفة المتفتحة الواعية لضرورة الوقت، والمطابقة لكل ضرورياتنا.

فأملي في الله سبحانه وتعالى أن يعيننا في هذا الطريق، وسوف يعيننا، واننا لندعوه سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتفيئين ظله ومن الراعين أمانته، ومن الذين لا يقفون وقفة ولا يتحركون حركة إلا في سبيل الله في سبيل اعلاء كلمته وتوطيد دينه وسنة رسوله.

ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يزيد تلك العروة التي هي موجودة بيننا وبينك شعبي العزيز متانة وصلابة، حتى يمكننا أن نغزو الأفكار كما سبق لنا أن غزونا الأحداث، وأن نترك للمغرب الجديد تنمية اقتصادية، وتجديداً دينياً وفلسفياً ومجتمعاً تقنياً نقياً طاهراً.

والسلام عليكم ورحمة الله.

السبت 26 جمادى الأولى 1392 — 8 يوليوز 1972